ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون فى نبيٍّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتى بالكلام عن آياته سبحانه فى الكون تأييداً للمطلوب بالموجود.

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التى وجدت للإنسان من قبل أن يُكلَّف ، أهى فى مصلحته أم فى غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة فى الكون - والمسخَّرة للإنسان - تفيد الإنسان فى حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً.

إذن : فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع.

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونيةَ التى سبقَت التكليف نافعة لكَ قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلِب منك تكليفاً ، فكما نفعك فى الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد[1] .

ونحن نعلم أن الأصل فى الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت فى مراداتك ، ثم تجىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمنى للراحة ، وأنت فى حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذى تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنسانى إلى مرحلتين :

الأولى : هى ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هى ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٦٧﴾** [يونس]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة فى الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله[1] .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك فى أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها[2] ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقاً فى الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلّف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذبْ» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

---

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاها به ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين »[(١)] .

والذى يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذى يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذى يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة .

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذى يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهى من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول فى النفس .

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه .

إذن : فالأمر والنهى قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهى من ربه ورب أبيه .

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة فى «افعل» و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبيِّن لنا الله سبحانه أنه جعل فى «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شىء مكان شىء آخر ؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل فى المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه فى آية ثانية :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ..(٢٣)﴾ [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام [1] بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطىَّ القدرىَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٦٧)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخَلْق» ، و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً [2] .

إذن : فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنزَّه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

---

(١) نام فلان نومًا : اضطجع أو نَعَسَ وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوَّم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص] .

إبريقاً أو أصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوِّل مخلوقاً إلى شيء له مهمة.

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه.

أي : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدى مهمة للمخلوق.

وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً.

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة. والخلق قد يترتب عليه مِلْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه مِلْك ؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مَالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه.

وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «مِلْك» فملكيته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظَل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى.

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٦٧﴾﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتى هنا بالأداء القرآنى المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه؟

وقديمًا لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التى وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء [1] يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه.

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتى بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه.

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائى إلى العيون.

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

---

(١) الضَّوْء - بفتح الضاد والضُّوء - بضمها والضياء ، والضَّوَاء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخص الضوء لما كان صادراً من شىء مضىء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ..﴿٥﴾﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

ويقول :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا [1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وهى مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت فى ظاهر الأمر مُبْصَرٌ فيها .

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك فى قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿ .. خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ [2] (٢١) ﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هى تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

---

(١) جعل الله لليل آية وهى القمر ، وجعل للنهار آية وهى الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧) .

(٢) أى : سنعيدها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ [1] .. (١٢) ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّى الجيب الذى نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة.

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢) ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. (١٣) ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة [2] وكأنها تقول للعين : أبصرينى.

---

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور].

(٢) بَصُرَ به : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بالأمر : علمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] أى : رأته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقَّب . وأبصره : جعله يُبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : مَنْ له عينان يُبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ .. (٥٠) ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضىء . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٦٧) ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ .. إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف].

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧)﴾ [يونس]

ولم يقل: لتتحركوا فيه، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة، فقال سبحانه: ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذى ينعكس على الأشياء هو الذى يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس فى زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء فى الإسراف فى السهر، وحين يأتى الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو فى غير ذلك من أمور الترفيه، ثم ينامون فى النهار، وينسون أن الليل للرقود، والنهار للعمل. وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام، فالضوء يؤثر فى الكائن الحى، وقد سبق النبى ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»[1]؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التى تتسبب فى تفاعلات كيماوية فى الجسم.

لذلك أقول دائماً: خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه؛ لأن السهر ضار، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذى تحضَّر، فليحترم قيمة العمل الذى يصنع الحضارة؛ لأن الآلة التى يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هى إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة، واحترام قيمة العمل فى النهار، وقيمة الترفيه فى الوقت المخصص.

نحن نسىء استخدام أدوات الحضارة، فالزمن الذى وفَّرته الثلاجة للزوجة؛ حتى لا تقف فى المطبخ نصف النهار لتعد الطعام، وصارت

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٨) عن جابر بن عبد الله، واللفظ للبخارى.

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها فى الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل فى ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التليفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفى هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها فى طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان فى الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء .

ويجب ألاّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا فى تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى : تغطيته للمرئيات) وتجلِّى النهار (أى : كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣)﴾ [الليل]

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ[1] (٤)﴾ [الليل]

أى : أن حركتكم هى الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

---

(١) شت الجميع يشتُّ شتاً ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شتٌّ متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء ، وقوله : ﴿.. أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. (١٤)﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان فى الزمان أو فى الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين.

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن فى ذلك لآيات لقوم يبصرون» .

ونقول: لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن فى هذا الزمان مهمته ، وهو القائل فى صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

فالعلَّة فى هذه الآية هى سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين فى الليل لا تؤدى مهمتها ، بل السمع هو الذى يؤدى مهمته .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا [1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص]

أى: أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ولا أحد سيتبيَّن شيئاً.

---

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل. قال الزجَّاج: السرمد الدائم. [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

إذن: فقد جاء الحق سبحانه فى آية الليل بالسمع[1] ، وجاء فى آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة فى الليل ، يأتى الكلام عن الينبوع الذى يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول.

وكما تتحرك فى النهار ، وترتاح فى الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذى تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة.

والله سبحانه يقول:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآنى فى أسراره ، حيث وضع الحاسة فى مكان وظيفتها التى تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدى مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار فى كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى .

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : «اتخذ فلان بيتاً» أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخد الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود [1] وقد كذَّبهم الله سبحانه في ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله [2] ، وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك [3] .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة] .

المحرك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض فى تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح.

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه فى صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله [1].

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم:

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد.

ومن المشركين من قال: إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه:

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [2] (٢٢) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتى ؛ ولذلك يأتى فى وسط الآية ويقول تعالى:

---

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله.

(٢) ضاز فى الحكم: أى: جار. وقسمة ضيزى وضوزى أى: جائرة ليس فيها حق ولا عدل. [لسان العرب: مادة (ض ى ز) - بتصرف].

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

وسبحانه تعنى: التنزيه، وهو الغنى أى: المستغنى عن مُعينْ كما تستعينون أنتم بأبنائكم، وهو دائم الوجود؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر، وهم أحداث تبدأ وتنتهى؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر:

* ابنى يا أنا بعد ما أقْضَى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكْر له»، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر فى الحَياة فى ولده.

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد، فيشعر الجد أنه ضمن الذكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد، والحق سبحانه غنىٌ عن الاستعانة، وغنى عن الاعتداد؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك، وليس هناك أقوى من الله تعالى، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد؛ لأنه هو الأول وهو الآخر، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أى لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة: ﴿سُبْحَانَهُ[1]﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها، ويُتْبِعِ ذلك بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

---

(١) سَبَح يَسْبَحُ من باب فتح: سَبْحا، وسباحة: عام ومرَّ فى الماء. ومن المجاز سبح الجواد، أى جرى كأنه يسبح فى الماء، ومن المجاز سبحت النجوم، أى: سارت فى أفلاكها. قال تعالى: ﴿.. كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها. وسبِّح اسم ربك: نزِّه اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل: سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه بالكمال، وهو منصوب على المصدرية، ومصدر نائب عن فعله. [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له ، والتنزيه: ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيء له - في الذات أو الأفعال.

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة.

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى في البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففي ذاته سبحانه.

وأنت حي[1] والله سبحانه حي ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم.

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتيٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ.

وإذا قال الحق سبحانه:

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ..(١٠)﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد.

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التي

---

(١) حَيِي يَحْيا ، كرضي يرضى وحيّ بالإدغام يحيا حياة وحيواناً ضد مات فهو حي ، وهو خاص بكل ذي روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ..(٩)﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ..(١٢٢)﴾ [الأنعام] والحي من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ ..(٢٥٥)﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾ [آل عمران] والمحيا : مصدر ميمي بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام] أي : حياتي وموتي.

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التى يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتى بمسألة فى الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ فى المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذى لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شىء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية فى الله تعالى ، قبل أن يوجد شىء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق فى التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن فى السور التنزيهية [1] تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

---

(١) فتجد التسبيح فى الماضى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد] وفى المضارع : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن] وفى الأمر : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى] وفى المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضى يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن فى تسبيح مستمر : ﴿.. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..ۭ (١) ﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذى أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان.

وأنت إذا سرْت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة فى أَسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ فى الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة فى ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق.

أى : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذى أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر بِبُعْد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذى تعرفه.

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن.

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم فى أدق شىء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أُسْرِىَ به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس [1] قد خُرق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم.

كلمة «سبحانه» -إذن - هى للتنزيه ، وهى لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التى أوجدها الله سبحانه.

وأنت تجد سور القرآن الكريم التى جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففى سورة الحديد يقول سبحانه:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه فى سورة الحشر:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر]

فهل سبَّح كل من فى السموات ومن فى الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه فى سورة التغابن:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

---

(١) نواميس الكون : الأسرار التى أودعها الله -سبحانه وتعالى- فى الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته.

إذن: فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ..(٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل فى آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت[1] معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته.

ويقول سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إنْ» قد تأتى للنفى فى مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢) ﴾ [المجادلة]

وفى قول الحق سبحانه هنا:

---

(١) قنت يقنتُ كنصَرَ - ذل وخضع ليده ، وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنت فى صلاته خشع واطمأن ، وقنت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

أي: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

أي: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك، فلا إعلام عن الله إلا من الله، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتي بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا [(1)] ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهي مأخوذة من الأمر الحسي المتصل بحياة الكائن الحي، فمقومات وجود الكائن الحي: نَفَس، وماء، وطعام،

---

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.